الباب الثامن

من الحياء السلبي

الفصل الأول : ذمُّ بعضِ الحياءِ في أقوالِ الفضلاء

الفصل الثاني : متىٰ يذهبُ الحياء ؟

الفصل الثالث : إذا طارَ الحياءُ من النّساء

الفصل الأول

ذمُّ بعضِ الحياءِ في أقوالِ الفُضلاء

أكثرَ الفضلاءُ والعلماءُ في امتداحِ الحياء ، وتبيان فضائِلهِ ومحاسنهِ ، وطرقِ منافعه ، هذا إذا كانَ الحياءُ طبيعياً ، ولكنّهم ذمّوا الحياء الذي ينقلبُ إلىٰ ضِدّه ، ويصبح شيئاً منَ الجهل والاستخفاف .

ـ قالَ عليُّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : قُرِنَتِ الهيبةُ بالخيبةِ ، والحياءُ بالحرمانِ[1] .

ـ وقيل في الأمثالِ القديمة : كثرةُ الحياءِ منَ التَّخنُّثِ[2] .

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٤١٤ و ٤١٥) .
(٢) المصدر السابق .

ـ وقد ذمَّ بعضُ الشُّعراء الحياء الذي يكونُ وبالاً علىٰ الإنسانِ ، وضمَّنَ في كلامه حكمة علي بن أبي طالب في ضرر الحياء فقال :

إنَّ الحياءَ مع الحرمانِ مقترنٌ كذاك قالَ أميرُ المؤمنين علي
واعلمْ بأنَّ منَ التخنيث أكثره فارفعه في طلبِ الحاجات والأمل[1]

ـ وقال الحسنُ البصري في ضرر الحياء ، وذمّه في غير موضعه :

من استترَ بالحياء لبس الجهلُ سرباله ، فقطعوا سرابيل الحياء ، فإنَّه مَنْ رقَّ وجهه رقَّ علمه[2] .

ـ وللحياء مقدارٌ فما زاد عليه فلا يُعدُّ منَ الحياء ، وقد وصفَ رجلٌ الحياءَ عند الأحنفِ بنِ قيس فقال : إنَّ الحياءَ ليتمُّ لمقدارٍ من المقاديرِ ، فما زادَ علىٰ ذلك فسمّه بما أحببت[3] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .
(٣) العقد الفريد (٢/ ٤١٥) .

ـ وقال الشمّاخ :

أجاملُ أقواماً حياءً وقد أرىٰ صدورهم باديٍ عليَّ مِراضها

ـ وفي وصية جميلة ، يوصي ابن سعيد المغربي[1] ابنه بعدم السكوت عمّا يضره ، وأنْ يلجمَه الحياءُ عن ذلك فقال : ولا يحملك الحياء علىٰ السُّكوت عمّا يضرُّك ألا تبيّنه ، فإنَّ الكلام سلامُ السِّلم ، وبالأنين يعرف ألمُ الجراح ، واجعل لكل أمرٍ أخذتَ فيه غايةً تجعلها نهاية لك .

ـ وإذا ما حُرِمَ المرءُ الحياءَ وصار قحاً ، فإنَّ الموازينَ

---

(١) ابنُ سعيد المغربي : هو علي بن موسىٰ ، أديب ، ورحّالة ، ومؤرّخ ، ولد بقلعة يحصب قرب غرناطة سنة (١٢١٤ م) ، ومات بتونس ، وقيل بدمشق ، درس بإشبيلية ، وجالَ في مصر والشّام والعراق والحجاز وغيرها ، له ديوان شعر رقيق ، ترجم لنفسه ولأسرته في كتاب : الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد ، وله كتب عديدة أشهرها : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، وكتاب : المغرب في حُلىٰ المغرب ، وكتب أخرىٰ ، توفي عام ١٢٨٦ م .

تنقلبُ ، وبالتالي يستحقُّ الذّم ، وما أقبح الفتىٰ الذي يُسلَبُ هذا السربال! :

إذا حُرِمَ المرءُ الحياءَ فإنَّه بكلّ قبيحٍ كانَ منه جديرُ
له قحةٌ في كل أمرٍ وسرّه مباحٌ وجدواه جفاً وغرورُ
يرىٰ الشتمَ مدحاً والدناءة رفعة وللسمعِ منه في العظاتِ أمورُ

ـ نعم إنَّ المرءَ إذا كانَ ذا قحةٍ ، لا وازعَ له في الحياء ، قليلَ ماءِ الوجه والمروءة ، فلا خيرَ فيه ولا فائدة ، إذ إنَّ دواعي الحياءِ إذا ذهبتْ وغابتْ ، ذهبَ الحياء وغاب ، ولا خيرَ في وجهٍ لا حياء لصاحبه . فعن سفيان بن عيينة قال : قال يحيىٰ بن جعدة : إذا رأيتَ الرجلَ قليل الحياء ، فاعلمْ أنَّه مدخولٌ في نسبه[1] .

* * *

(١) روضة العقلاء (ص٩٠) .

الفصل الثاني

متىٰ يذهبُ الحياء ؟!

الذنوبُ والمعاصي من مفسدات مادة الحياء ، فكلّما اشتدتْ ملابسة الإنسان للذنوب ، ضعف عنده الوازع ، وكانتِ المعاصي سبباً لذهابِ الحياء الذي هو مادة حياة القَلْب ، وهو أصلُ كل خير ، وذهابه ذهاب الخير أجمعه ، وفي الصحيح عن رسولِ الله ﷺ قال : « الحياءُ خيرٌ كله »[1] .

ـ وقال ﷺ : « إنَّ مما أدرك النّاس من كلام النبوة

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (٣٧) ، وأبو داود في الأدب برقم (٤٧٩٦) .

الأولىٰ : إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئت »[1] .

وفي هذا الحديث تفسيران :

أحدهما : أنَّه علىٰ التهديد والوعيد ؛ مَنْ لم يستحِ فإنَّه يصنعُ ما شاءَ من القبائح ، إذ الحاملُ علىٰ تركها الحياء ، فإذا لم يكن هناك حياءٌ يردعه عن القبائح فإنه يواقعها .

والثاني : أنَّ الفعلَ إذا لم تستحِ منه من الله فافعله . وإنما الذي ينبغي تركه هو ما يستحيا منه من الله .

فعلىٰ الأول يكون تهديداً كقوله : ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت : ٤٠] . وعلىٰ الثاني يكون إذناً وإباحةً .

ـ قال ابن قيم الجوزية عن الحديث السابق : فإن قيل : هل من سبيل إلىٰ حمله على المعنيين ؟

قلتُ : لا ، ولا علىٰ قولِ مَنْ يحملُ المشتركَ علىٰ جميـ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب برقم (٥٧٦٩) ، وأبو داود في الأدب برقم (٤٧٩٧) ، وابن ماجه في الزهد برقم (٤١٨٣) .

معانيه ، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة ، ولكنّ اعتبارَ أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر[1] .

ـ والمقصود أنَّ الذنوبَ تضعفُ الحياءَ من العبد ، حتىٰ ربما انسلخَ منه بالكليةِ ، حتىٰ إنَّه ربّما لا يتأثرُ بعلمِ النّاس بسوءِ حاله ، ولا باطلاعهم عليه ، بل كثيرٌ منهم يخبرُ عن حالهِ ، وقبحِ ما يفعل ، والحاملُ له علىٰ ذلك انسلاخه من الحياءِ ، وإذا وصلَ العبدُ إلىٰ هذهِ الحال ، لم يبقَ في صلاحه مطمع :

وإذا رأىٰ إبليسُ طلعةَ وجههِ حيّا وقال : فديتُ من لا يُفلح

ـ إنَّ الحياءَ مشتقٌ من الحياة ، والغيث يسمى حيا ـ بالقصر ـ لأنَّ به حياةَ الأرض والنّبات والدّواب ، وكذلك سمّيت بالحياة : حياة الدنيا والآخرة ، فمن لا حياء فيه ، ميتٌ في الدنيا ، شقيٌّ في الآخرة ، وبين الذنوب وبين قلةِ الحياءِ وعدم الغيرة تلازمٌ منَ الطرفين ، وكلٌّ منهما يستدعي الآخر ،

---

(١) الداء والدواء (ص ١٣٢) .

ويطلبه حثيثاً ، ومَنِ استحيا منَ اللهِ عند معصيته ، استحيا اللهُ من عقوبته يومَ يلقاه ، ومَنْ لم يستحِ من معصيته ، لم يستحِ من عقوبته .

ـ ومما يُنْسبُ لنبي الله سليمان ـ عليه السلام ـ قوله :

الحياءُ نظامُ الإيمانِ ، فإذا انحلَّ النظام ذهب ما فيه[1] .

* * *

(١) بهجة المجالس (١/ ٥٨٩) .

الفصل الثالث

إذا طارَ الحياءُ من النِّساء!

إنَّ الحياءَ حسنٌ ومنَ النِّساءِ أحسنُ ، ولكنْ إذا طارَ الحياءُ منهنَّ وتبخَّرَ فأينَ تكمن الفضيلة ؟! وأينَ نجدُ المكارم ؟! لأنَّ الحياءَ ذروةُ المكارم عند النّساء أولاً .

ـ إنَّ المرأةَ إذا فقدتِ الحياء لم تبقَ فيها خلةٌ حسنةٌ ، وربما تصنعُ الأعاجيبَ ؛ وأمامي الآن قصيدة جميلة لإحدىٰ شواعر عصرنا الحالي وهي فاطمة حداد[1] السورية التي

---

(١) فاطمة حداد إحدىٰ شواعر النساء السوريات المعاصرات ، ولدت في مدينة اللاذقية عام (١٩١٩ م) ، وتزوجت في سن مبكرة ، ثم تركت المدرسة لظروف أحاطت بها ، أحبتِ الشعر والأدب ، ولها دواوين شعرية من أشهرها ديوانها =

تتحدثُ عن راقصةٍ منحرفةٍ طارَ الحياءُ منها ، وتبخّرت عناصره ، فبدتِ الراقصةُ في قصيدتها بائعةً للجمالِ ، سكرىٰ ، ترقصُ كالطيرِ المذبوح ، بل هي لقمة مُضغتْ بأنيابٍ ظالمةٍ ، وهذه الراقصة كالروضة النضيرة التي تجفُّ لترويَ ظلمةَ الظامئين ، وكالوردةِ الفوّاحة يشمّها الرجل ثم يلقيها ويدوسها ، أو كالطير الذي تناثر ريشُه بينَ المخالبِ والأنياب .

ـ وهذه الراقصةُ التي جفَّ حياؤها ، لم تكن هي وحدها كذلك صاحبة الذّنب ، بل كلُّ الذين استمعوا لها ، واستمتعوا برقصها وأنّاتها ، ودفعوها إلىٰ المزيد من طرح رداء الحياء ، بتشجيعهم لها ، فهمُ الذين عاموا علىٰ أمواجِ بحرها ،

= الأخير وهو بعنوان « غزلُ الرماد » ، وقد خطّه أحد عمالقة الخطاطين بالخط الفارسي الجميل ، وهو متداول مطبوع ، ولكن لم يُذكر عليه اسم ناشر أو تاريخ طبع ، ولكن وصلتني منه نسخة منذ بضعة أعوام . وشعر فاطمة حداد جميل سلس يعالج عدة نواح مهمة .

فأغرقوها وتركوها بين الأمواج تلتهمُها ، وتجعلُها في الأسفلين .

ـ والآن دعني عزيزي القارىء ، أقدّم لك هذه التُّحفة الفنية ، والصورة الشعرية الجميلة ، ومع أنفاس هذه الشاعرة ، ذات الرّيشة الأدبية الساحرة ، والكلمات المعبّرة الآسرة ، والمعاني اللطيفة الناضرة ، وهذه الهمسات الجميلات الناعمات لبنات حواء كيلا يبتعدن عن ثوب الحياء :

بِعْتِ الجمالَ وترقصينَ وتطربينَ وتمرحينْ
وبذلتِ حُسنكِ عارياً ووقفتِ باسمةَ الجبينْ
فوقَ المسارحِ ريشةٌ هبّتْ تُثيرُ العاشقينْ
يا نفحةَ الرّوضِ النّضيرِ وبسمةَ الصُّبح المُبينْ
حولَ البيابِ فراشةً براقة تتنقلينْ
تترنحينَ معَ الصنوجِ جريئةً وتُجلجلينْ
والخصرُ لفّتهُ الشُّفوفُ وصانَهُ البرقُ الحصينْ

مَنْ أنتِ يا هيفاء يا دوامةً ذابتْ حنينْ
يا مغزلَ التجارِ في الأسحار مَنْ للبائعينْ
يتجمهرونَ ويطربونَ وأنتِ لا تتأثرينْ
يستعذِبونَ هنيهةً ويهاجمونَ مدىٰ السنينْ
بيعتْ عواطفُكِ الثّمينةُ يا دهاءَ الرابحينْ
بعتِ الجمالَ فما شعورُكِ يا تُرىٰ لو تشرحينْ
سكرىٰ علىٰ خشبِ المسارحِ غبتِ عما تفعلينْ
أم ترقُصين رهينةً مذبوحةً تتألمينْ
طيراً أسيراً أرقصته يدُ الأثيمِ المستهينْ
مِسكينةٌ يا مَنْ وهبتِ لغيرِكِ الكنزَ الثمينْ
ما أنتِ إلا لُقمةٌ مُضغتْ بأنياب السنينْ
ما أنتِ إلا روضةٌ جفّتْ تُروّي الظامئينْ
ما أنتِ إلا وردة كلٌّ يشمُّ ويستهينْ
زعموا وقالوا حرّة ولأنتِ أكثرُ من سجينْ

طيرٌ تناثرَ ريشهُ بينَ المخالبِ يستكينْ
في القيد غرّدَ باكياً يرجو الخلاصَ ولا مُعينْ
خلخالُهُ ذهبٌ ولكنْ لا يَرِقُّ ولا يلينْ
زعموكِ وحدكِ عن شقائك في الحياة ستُسألينْ
وتبرّؤوا منْ ذنبهم يا ويلهم منْ مُذْنبينْ
الذَّنبُ ذنبُ الناس كلُّهم بما تتعذبينْ
يا ويلهمْ ممّا جنوا مُستمتعينْ مشجعينْ
عاموا علىٰ أمواجِ يمّكِ يُبْحرونَ وتغرقينْ[1]

---

(١) غزل الرماد (ص ٧٣ـ٧٥) . وقد ذكرتُ هذه القصيدة كاملة ، لما فيها من وصف دقيق لواقع هؤلاء اللواتي عصفت بهن يدُ الغدر ، وجعلتهن للتسلية ، ومن ثم يُرمىٰ بهنّ إذا ما ذوي جمالهن .

ولعل ما نراه اليوم ونسمع به من عرض أزياء ، وانتخاب ملكات جمال لا يبُعد كثيراً عما قصدته الشاعرة في هذه القصيدة الجميلة .

ـ إنَّ الحياء خمارُ المرأةِ ، فإذا ما خلعت هذا الخمار أصبحت لا خيرَ فيها ، وإذا ما تولّىٰ عنها الحياءُ تولّتْ عنها المكارم ، قالَ علي الجارم مخاطباً ابنته والمرأة بشكل عام ، بأنْ تجعلَ الحياءَ شعارها :

واجعلي شيمةَ الحياءِ خماراً فهو بالغادةِ الكريمة أولىٰ
ليس للبنتِ في السعادةِ حظٌّ إنْ تناءىٰ الحياء عنها وولّىٰ
والبسي من عفافِ نفسكِ ثوباً كُلُّ ثوبٍ سِواهُ يفنىٰ ويبلىٰ

ـ إنَّ حياءَ المرأةِ مفتاحُ كلِّ خيرٍ لها وللمجتمع ، فالحياء عنصرُ النُّبل ، فما كان في شيء إلا زانه ، ولو تجسّم لكان رمْزَ الصلاح والفلاح والإصلاح .

ـ إنَّ الحياءَ إذا سقط عن وجه المرأة ، فقد آذنتِ الحياةُ الفاضلةُ بالضُّمور ، وأضحتْ عُنصر سوءٍ في المجتمع يجب إصلاحه أو إزالته ، إلا أنَّ المرأة التي تعي دورها في هذه الحياةِ لتدرك تماماً قيمةَ الحياءِ ومكانته ، وتدرك أنَّها روحُ الحياةِ وحياةُ الروحِ في هذا المجتمعِ الخيِّر الذي تقودهُ بحيائها إلىٰ مدارج الكمال .

ـ أما إذا تبعتْ حياةَ الفوضىٰ وفوضىٰ الحياة ، فإنَّها لا تأتي بخير ، وخصوصاً إذا فقدتْ عنصر الحياء الذي هو مادّة الحياة وروحها ، هنالك تكون الكارثة ، وتكون الفوضىٰ واللامبالاة ، ولكنّ الحقيقة لا تخفىٰ علىٰ كلِّ ذي لبّ ، وعلىٰ كل عاقل .

ـ وفي تلكم المعاني السابقة وجدتُ قصيدةً جميلة بعنوان : « فوضىٰ حياتكِ » لأحدِ شعراءِ العصر الحالي واسمه محمد محمود عثمان[1] ، تعالجُ قضية مهمة من قضايا المرأة التي تركت الحياء وراء ظهرها ، وتبعت الموضة والفوضىٰ ،

---

(١) محمد محمود عثمان ، أحد شعراء سورية الموهوبين الذين أحبوا الشعر وفنّ الكلام ، وُلد هذا الشاعر سنة (١٩٥٣ م) في بلدة جيرود القريبة من دمشق ، وتعلّم وعلّم في مدارس دمشق ، حتىٰ حصل على التقاعد عام (١٩٩٤ م) ، وله آثار شعرية جميلة رائعة من أشهرها ديوان « فجر الهداية » وهو مطبوع متداول ، وحظي علىٰ أكثر من جائزة شعرية في عديدٍ من المهرجانات .

وعَرضتْ مفاتنها للأنام ، وغطّتْ وجهها بالمساحيق ، ولكن لم تجدها تلكم الرتوش ولا ذلكم التزوير والخداع ، ثم يدعو الشاعر محمد عثمان المرأة دعوة حلوة طيبة إلىٰ الحياء وإلى الأخلاق الحسان من خلال قصيدته الجميلة التي اختار لها أصعب القوافي مركباً ، فمع الشاعر محمد عثمان نبحرُ في هذا اليمّ :

فوضىٰ حياتُكِ لا أحبُّ الفوضىٰ ... والنّاسُ يقتلُهم رياءُ مرضىٰ
فوضىٰ حياتُك ما علمتُ وإنّني ... بالسُّوء والإفساد لا أرضىٰ
فوضىٰ مسيرِكِ في الطّريقِ تطايرتْ ... عيناكِ طولاً ثُمَّ مالتْ عرضا
فوضىٰ ثيابُكِ والأظافرُ مثلُها ... وعيونُك الحمقىٰ وصدرك أيضا
فوضىٰ جدائِلكِ التي بعثرتِها ... في الدّربِ شلاّلاً تهزُّ الأرضا
تبدينَ للأنيابِ كلَّ مفاتنٍ ... هلْ أنتِ عارضةٌ جمالك عرضا ؟
بصراحةٍ تبقينَ مهما عدّلَتْ ... فيك المساحيقُ التي قد تنضىٰ
ما للخداعِ ترسختْ أركانه ... وبدا لصيقاً في الهوىٰ أو فرضا
هيا امسحي مكياجَ وجهك واصدقي ... لا تقتلي روحاً ويكفي البعضا

يكفي خداعاً مَنْ تُراكِ تخادعي ... إلاّ صباكِ وتستفيدُ الموضىٰ
ما أجملَ الحسناءَ تدركُ خيرها ... وتظلُ تسترُ حسنها والرّمضا
إيمانها وحياؤها أضفىٰ لها ... كلَّ الجلالِ وأمْرُها قُلْ يُقْضىٰ
باهتْ بسترٍ أزهر يسمو بها ... فحنتْ لطلعتها العوالي خفضا
فالصِّدقُ يرفعُها إلىٰ أعلىٰ الذُّرا ... ويعيش في قلبِ الأحبةِ نبضا
أمّا الخداعُ فإنَّه متكشّفٌ ... يوماً لديها والسَّرائرُ تفضىٰ

ـ وبعد أحبابنا الأعزاء ؛ فتلكم همساتٌ وأنسامٌ قضيناها في رحابِ الحياءِ ، ذلك الخُلق النبيل الخيّر ، بل الخُلق الذي كلّه خيرٌ ، وخيرٌ كله ، وها نحنُ أولاء قد عرفنا ماهيته ، فتعالوا ندعو الله عَزَّ وجَلَّ بهذا الدعاء :

اللَّهُمَّ اجعلنا من أهلِ الحياءِ ، وأكرمنا بخلُق الحياء ، واحشرنا معَ أهلِ الحياءِ ، وزيّنا بالحياء .

اللَّهُمَّ اجعل الحياءَ رداءً لنا ، ولا تفضحنا بين خَلْقِكَ ، واجعلنا ممن يستمعون القولَ فيتبعون أحسنه .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

* * *